جدارية الإصغاء والأثر

بين الإصغاء والقول: في مديح الحرف الذي لم يُستعجل

على بحر الطويل – بقلم قيس عبد الله الجوعان

تمهيد:

ليست هذه الجدارية عودة إلى الجاهلية، بل عودة إلى الجوهري. إلى الكلمة حين كانت تُوزَن بالسكوت، لا تُستهلك بالعجلة. حين كان الشاعر يُنصت لما في صدره، لا لما يتوقعه الناس من فصاحةٍ أو مدحٍ أو تهويل.

الإصغاء كأخلاق لا كمهارة:

الإصغاء، في هذا النص، ليس مجرّد فضيلة مهذبة. بل هو موقف وجودي تجاه اللغة. فحين يُغمض القلبُ جفنه، لا ينام، بل يتأمّل. لا يغيب، بل يتحرّر من الانفعال الآني، ليصوغَ المعنى لا كما يُقال، بل كما ينبغي أن يُقال. الصمت هنا ليس امتناعًا عن التعبير، بل هو شرط التجلّي. هو الباب الذي لا يُفتح بالكلام، بل يُفتح ليُقال فيه كلامٌ آخر.

ابتذال القول: حين تُنتهك حرمة العبارة:

ما أكثر ما يُقال اليوم، وما أقل ما يُصغى إليه. في زمنٍ يتكاثر فيه الكلام، ويضيق فيه التأمل، يصبح الصمت موقفًا أخلاقيًا لا ضعفًا. في هذه القصيدة، يُهاجَم الزيفُ اللفظي: البلاغة التي تتجمّل ولا تقول، والفصاحة التي تلمع ولا تضيء. فالشعر الذي لا يسكن في الضمير، هو رقصة في الفراغ، وزخرف لا يحمل أثرًا.

الأعشى: إصغاءٌ أعمق من البصر:

استدعاء الأعشى في المعلقة ليس محض تكريم تراثي، بل تأكيد أن الشعر الحقيقي لا يُقال من فمٍ فصيح، بل من قلبٍ فقيه. كان الأعشى ضريرًا، لكنه أبصر المعاني. وكان الآخرون مبصرين، لكنهم عجزوا عن الرؤية. إن الإصغاء الذي مثّله الأعشى هو نقيض الزخرف، ونقيض التصنّع، ونقيض من لا يقول إلا ليسمع نفسه.

في الختام:

القصيدة لا تُمجّد الصمت لذاته، بل الصمت الذي يسبق القول، ليعطيه شرعية. ولا تحتقر البلاغة، بل تدعو إلى بلاغة مأهولة بالبصيرة. فكل حرفٍ لم يُصَغ من إصغاء، سيبقى صدًى مستعارًا. أما الحرف الذي وُلد من صمتٍ يقظ، فله أن يُقال... وله أن يُعلَّق.

ولهذا، كانت الجدارية وسمة. لا وشمًا. لا ادّعاءً. بل أثرًا من أثر الإصغاء.

قيس عبد الله الجوعان © 2025 – جميع الحقوق محفوظة.
لمزيد من التفاصيل : https://essays.aljoan.net/rights/copyright_notice.html

القصيدة

إذا أغمضَ القلبُ عينًا على سِرٍّ،

فلا تَحسبنَّ السكوتَ انكسارا،

ولكنّه حين يختار صمتًا،

يُهيّئُ في الفكرِ دربًا ونارا،

إذا سكن الحرفُ بين الضلوعِ،

تُجلّى المعاني وسامًا ونارا،

وما كلُّ صمتٍ دليلُ جُبُنٍ،

كما ليسَ كلُّ البيان انتصارا،

وقد يُثمر الصمتُ ما لم يُقل،

ويكشفُ سترًا، ويُعلي الستارا،

ويُصغي إلى ما تخفّى طويلاً،

كأن السكوتَ يُفجّرُ حوارا،

فما الشعرُ إن لم يُقِم في ضميرٍ،

سوى رقصةٍ في الفراغ انحدارا،

وما الشعرُ زينةُ فصحٍ هشيمٍ،

إذا لم يكن فيه صدقُ المسارا،

سلامٌ على الأعشى، إذ قال قولا،

تساقط منه البيانُ انهمارا،

إذا ضاعَ دربُ المعاني، أتانا،

فكانَ لها في الصدى استبصارا،

أرادوا به زخرف القولِ طرًّا،

فقال لهمُ: واتقوا الاستعارا،

فما الحرفُ إلا إذا ما تأنّى،

وأبصر في القلبِ نورَ المسارا،

فلا تذكروا الشعرَ دون اسمه،

ولا تنشدوهُ صدًى مستعارا،

ففيه لسانُ الزمان القديم،

وفيه الوفاءُ، وفيه الوقارا.

تمّت، لا عن صمت، بل عن إصغاء.

خاتمة تأويلية

لم تكن هذه الجدارية بحثًا عن بلاغة الصوت، بل دعوة إلى بلاغة الإصغاء. فما يُقال قبل أن يُصغى إليه، يبقى سطحيًا، مهما جمُلت لغته. إن الشعر الذي يسكن الوجدان لا يُصاغ من الرغبة في التأثير، بل من الانصات العميق لما لا يُقال.

في زمنٍ تتكاثر فيه المنابر وتتناقص فيه الآذان، يغدو التريّث في القول فعلَ مقاومة، ويغدو الصمت عمقًا لا فراغًا. وكما لا تُزرع الكلمة الصالحة في أرضٍ مستعجلة، لا يثمر القول إلا حين يسبقه صمت مأهول بالنية.

ولذلك، لا يُقاس أثر الشعر بمدى انتشاره، بل بمدى صدقه، وولادته من لحظة صمتٍ حي، نَقِيّ، ومتواضع. هذه الجدارية، في جوهرها، ليست قصيدة، بل أثرُ إصغاءٍ تنحت في اللغة.

تنويه لغوي:

قد يلحظ بعض القرّاء اختلافًا طفيفًا في الإيقاع السمعي بين كلمة »**استبصارا** «وغيرها من قوافي القصيدة، مثل »**انهمارا** والمسارا.«

وهذا يعود إلى البنية الصرفية الأطول لكلمة «استبصار»، كونها مشتقة من فعل مزيد (استفعل)، مما يضفي عليها إيقاعًا داخليًا أكثر كثافة.

إلا أن هذا التفاوت لا يُعدّ خرقًا للقافية من الوجه العروضي، إذ أن جميع الأبيات تنتهي بصيغة (ارا) وتلتزم بالرويّ الموحد (الراء المفتوحة الممدودة).

وقد اختيرت الكلمة عمدًا لتثبيت معنى **البصيرة المتولدة من الإصغاء**، حتى لو بدت ثقيلة نسبيًا في الميزان السمعي. فالمعنى، هنا، أولى من الانسياب اللحني الخالص.